(١٧)

تأملات عربى بين عامين

عام مضى وعام أتى..

(١)

العرب والمسلمون..
بين فقدان الإرادة والأمل
وبين إمكانية امتلاكهما (*)

(*) نشرت بصحيفة " البيان" الإماراتية ــ دبى فى ١٩٩٣/١/١٤م.

تأملات عربى بين عامين
عام مضى وعام أتى..
(١)
العرب والمسلمون..
بين فقدان الإرادة والأمل
وبين إمكانية امتلاكهما

قال رسول الله (صلى الله عيه وسلم): حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. من هذا المنطلق أسائل نفسى كما أطالب كل مسلم حاكما كان أم محكوماً أن يسائل نفسه: ماذا قدم لنفسه ولأمته خلال هذا العام الذى مضى وانقضى؟ قد يقول قائل: مالك أنت ومالنا؟ ابدأ بنفسك ولا تحاسب إلا نفسك! واتركنا نحتفل فى هدوء (آسف: أقصد فى صخب!) ببداية العام الجديد!!.

والحقيقة أننى كنت أفعل ذلك سابقاً ولم أكن أحاسب إلا نفسى سواء فى نهاية العام الهجرى أو فى نهاية العام الميلادى، لكننى وفى هذا العام بالذات لم أستطع الاكتفاء بمحاسبة النفس ووجدتنى رغما عنى أمسك بالقلم لأتساءل وأسائل الآخرين عن حصاد عام مضى وماذا ننوى فعله فى عام مقبل؟!

ولعل السبب الذى جعل القلم يأبى السكوت فى هذا العام بالذات هو أنه كان عاماً مليئاً بالأحداث ومفعماً بكل أنواع المآسى للعالمين العربى والاسلامى على الرغم من أنه كان يمكن أن يكون أفضل أعوام العالم الإسلامى فى العصر الحاضر على الإطلاق.

أما عن آلامه ومآسيه فهى لا تخفى على أحد، فالمجاعات والحروب تكاد تفتك بملايين المسلمين فى الصومال وأفغانستان والبوسنة والهرسك وفى طاجكستان وكازاخستان وغيرهما من الدول الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى سابقاً. ويكاد يكون حال المسلمين فى كل أنحاء العالم واحدا رغم تباين الظروف، رغم الغنى الذى تنعم به بعضها مثل دول الخليج ورغم الفقر الذى ترزح تحته أخرى مثل دول أفريقيا الإسلامية وخاصة الصومال، ودول آسيا خاصة بنجلاديش وأفغانستان، فحال الجميع هو الإحساس المفعم بالحزن والألم لما يجرى فى العالم الإسلامى من تمزق وتشرذم وحروب ومجاعات وأوبئة وزلازل وبراكين وغير هذه وتلك من أهوال!.

ولاشك أن فداحة وعمق هذا الإحساس بالألم والمرارة مرده إلى أجهزة الإعلام خاصة الغربية منها والمستغربة التابعة لها. لقد نقلت لنا طوال العام الماضى ما يمكن إن نسميه " دراما العالم الإسلامى". وبالطبع فلم يكن هذا العرض الدرامى لمآسى العالم

الإسلامى بدافع من " الموضوعية" العلمية أو "من الشفقة" الإنسانية، وإن بدا على السطح كذلك!!

لقد تم هذا التضخيم لتلك المآسى وعرضها اليومى بهذا الشكل الدرامى الكئيب الذى كاد فى معظم أيام العام أن يصيبنى وكل مسلم غيور على أرضه وعرضه ودينه بفقدان الشهية ودوران الرأس وفقدان المعنى – ليترسخ فى وعينا أننا قوم متخلفون لا نصلح لشىء؛ فنحن دون خلق الله جميعاً نتمتع بأعلى نسبة صراعات وحروب، وبأعلى نسبة فقر، وبأعلى نسبة أمية، وبأعلى نسبة جهل بين المثقفين، وبأعلى نسبة استبداد علمى وتكنولوجى! ونحن دون خلق الله جميعاً نتمتع بأعلى نسبة تخلف فى الحكم، وبأعلى نسبة ضياع للحقوق الإنسانية!إلخ. وباختصار، لقد حاول الإعلام الغربى والمستغرب (أى الناقل عن الغرب) أن يرسخ فى وعى الإنسان المسلم أنه صاحب أعلى نسبة تخلف حضارى فى التاريخ المعاصر!!

وبالطبع كان ذلك الإعلام الغربى من الذكاء، والإعلام العربى المستغرب من الغباء بحيث لم يعرض لنا هذه المقولة إلا بصورة تتمتع بأعلى قدر من الحساسية الإنسانية، بحيث يبدو لجميع الناس فى العالم أن المسلمين هم صانعو " التخلف" و"الارهاب" فى العالم،

بينما الغربيون هم صانعو ومصدرو الإنسانية إلى العالم بما يفيضون به من رقة فى مساعدة المحتاجين ونجدة المظلومين كما حدث مع أكراد العراق، وجوعى الصومال، وفقراء الجمهوريات الإسلامية السوفيتية، ومع منكوبى زلزال مصر، ومشردى فيضانات بنجلاديش .. الخ!!

أما عن أنه كان يمكن أن يكون أفضل الأعوام المعاصرة بالنسبة للعالم الإسلامى؛ فالحق أقول إنه – مع قليل من وعى حكوماتنا وشعوبنا – كان يمكن لهذا العام بالفعل أن يكون كذلك. لقد شهد هذا العام أحداثاً إيجابية كثيرة؛ فقد تخلصت أفغانستان من الاحتلال السوفيتى وتوابعه من حكام كابول الشيوعيين، وشهد تفكك الامبراطورية السوفيتية ومن ثم تخلصت الدول الإسلامية السوفيتية خلال ذلك من الهيمنة الشيوعية ومن الكبت الفكرى والأيديولوجى الذى عانته طوال الحقبة السابقة منذ بداية القرن العشرين. كما شهد كذلك تفكك الدولة اليوغسلافية ومن ثم استقلت جمهورية البوسنة والهرسك ذات الأغلبية المسلمة . لقد شهد هذا العام أيضاً تخلص بعض الدول الإسلامية من عبئها الثقيل من الديون الخارجية مثل مصر التى بدأت تتطلع أخيراً إلى الاستقلال الاقتصادى والخروج من عنق الزجاجة على حد تعبير الاقتصاديين المصريين، كما شهد محاولة السودان الاعتماد على الذات فى إنتاجها الزراعى، وشهد كذلك

استمرار الانتفاضة الإسلامية فى فلسطين المحتلة وهو ما يعبر عن حيوية الشعب الفلسطينى ورفضه للاحتلال الاسرائيلى لأرضه رغم ما يجرى من محادثات للسلام بين الطرفين.

ولكن ماذا فعلنا إزاء هذه الشواهد الإيجابية؟؟

لقد هللنا قليلاً، وفرحنا، وعبرنا عن فرحتنا بكلمات ثم بكلمات ولا أفعال!، وهذه هى آفة آفاتنا فى العصر الحاضر؛ حينما نحزن نتكلم، وحينما نفرح نتكلم، وحينما نشجب نتكلم، وحينما نهنىء نتكلم الخ. لقد استبدلنا الفعل بالكلام!! وكأننا صدقنا قول من قال منا أننا (أى العرب) " مجرد ظاهرة صوتية"!

لقد كان رد فعلنا إزاء هذه الأحداث سواء المؤلمة أو الإيجابية رداً كلامياً لا أكثر!! فلم نكن على مستوى الحدث بأى صورة من الصور، وضاع منا إيماننا الواعى بهذه الآية الكريمة " **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.**(١) وبمثيلاتها مثل **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّه أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** (٢) إن القول فى الآيتين الكريمتين يرتبط بالفعل، وإذا انفصم هذا الارتباط فقد فقدنا أحد جوانب الإسلام وأحد أركان الإيمان.

---

(١) القرآن الكريم : سورة فصلت : آية ٣٣.

(٢) القرآن الكريم: سورة الصف: آية ٢، ٣.

فماذا فعلنا لمسلمى أفغانستان!، لم نساعدهم على امتلاك استقلالهم الفعلى، فتركناهم يتحاربون دون أن نتحرك لرأب الصدع ولم الشمل والتوفيق بينهم، تركناهم دون مساعدة اقتصادية حقيقية تحول الدمار الذى خلفه الحرب إلى بناء.

وماذا فعلنا لإخواننا فى البوسنة والهرسك الذين ما إن أعلنوا الاستقلال حتى اجتاحتهم جحافل الصرب تشبعهم قتلاً وتشريداً واغتصاباً ؟!

لقد أصدرنا بيانات الشجب والإدانة وكأن أمرهم كأمر أى حدث عالمى تعودنا إدانته تقليداً واتباعاً فى الوقت الذى كان يجب علينا – لو تحلينا بقليل من الوعى والضمير اليقظ والإحساس بالجسد المسلم الواحد – أن نهب لنعلن للعالم أجمع أننا سنقاتل من أجلهم!، إن مجرد هذا الإعلان لم يصدر حتى بعد أن عقد مؤخراً مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بعد أن كادت تمحى سراييفو من الوجود، وبعد أن أدان العالم كله تلك الجرائم البشعة التى ترتكب بحق هؤلاء المسلمين، فكنا نحن آخر من أدان وآخر من تكلم!!

وحينما تكلمنا كان كلامنا ناعماً كالحرير فلم نهدد بالمشاركة فى الحرب الدائرة هناك نجدة لأخوان لنا فى الدين رغم بُعد الوطن!!

أعود لأقول، كان يمكن لهذا العام أن يكون من أحسن الأعوام التى مرت على العالم الإسلامى فى العصر الحاضر، ولكننا لم

نستثمر أحداثه الإيجابية، فمازلنا فى غينا سائرون، وفى ملذاتنا منهمكون، وفى تبعيتنا للغرب ماضون، وعن قضايانا ومشاكلنا الحقيقية الملحة غافلون!

إننا أحوج ما نكون فى نهاية عام مضى وبداية عام جديد أن نعى أزمتنا الحقيقية؛ إنها أزمة انعدام الوعى بذواتنا وبكل ما يدبر لنا من أنفسنا قبل أن يدبر لنا من أعدائنا! إنها أزمة فقدان الثقة بقدرتنا على الفعل !. وأسوأ ما يمكن أن يصيب أمة هو فقدان الثقة بنفسها وبإمكانياتها وبقدرتها على الفعل والمشاركة الإيجابية فى صنع الأحداث وتجاوز المحن! إنها أزمة انعدام الضمير الإسلامى – بما يعنيه من قيم الجهاد والأخلاق القويمة – وقد أماته فينا تكالبنا وراء إشباع الحاجات المادية، التى ما إن نشبع إحداها حتى تتولد أمامنا مئات غيرها، وكل ذلك تولد من متابعتنا اللاهثة لمادية الغرب ومدنيته البلهاء التى تسير بالإنسان إلى الفناء معصوبة العينين ونحن خلفها سائرون!

أما عن العلم الجديد، فنحن دائماً ومنذ عقود بل ومنذ قرون مضت لم نعد نفكر فى المستقبل، نحن قد اعتدنا – ولا أدرى أى شيطان رجيم سلط علينا ليجعلنا كذلك – أن لا نفكر إلا فى الحاضر، بل لا نفكر إلا فى اللحظة التى نعيشها منه؛ كيف نعيشها باسترخاء واستمتاع !!

إن حالنا – إذا ما استعرنا تعبيراً استخدمه الفلاسفة الوجوديون لوصفه – كحال من يعدم مستقبله لصالح لحظته الحاضرة أحياناً، وكحال من يعدم حاضره ومستقبله لصالح ماضيه أحياناً أخرى!، فقد تعودنا أن ينصب تفكيرنا دائماً على الحاضر الذى نعيشه سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الدول، وإذا ما فكرنا فى التخطيط للمستقبل فإن خططنا له – خاصة على مستوى الدول – لا تتجاوز فى أحسن الأحوال التخطيط لسنوات خمس! كما أنه يحلو لنا دائماً – وهذا أمر تنفرد به بين الأمم – أن نجتر الماضى وأن نعيش دائما فيه ونتمنى لو يعود!!.

إن الماضى مضى وانتهى ولن يعود. لقد كان ماضياً عظيماً وعلينا أن نتذكره دائماً ونفخر به، ونعتز بكوننا أمة صنعت تاريخا وحضارة عظيمين، لكن هذا لا يعنى أبدا أن " نعيش فى الماضى" أو أن " نعدم حاضرنا ومستقبلنا لصالح هذا الماضى العظيم".

إن علينا بالضرورة أن نواجه الحاضر بكل ما فيه من تعقيدات ومشكلات ملحة بفعالية وايجابية، كما أن علينا دائماً أن نفكر فى المستقبل القريب أو البعيد وأن نخطط له. إن مواجهة مشكلات الحاضر والتفكير فى المستقبل لا يكون إلا بأسلحة العصر الذى نعيشه، وسلاح العصر هو العلم والتكنولوجيا، ولا يمكن الأخذ بهذين

السلاحين بانفصال عن وعينا بذواتنا وبإمكانياتنا المستقلة لأن الوعى بامكانيات الذات وطموحاتها يعنى أننا سنستطيع أن نوظف ذلك العلم وتلك التكنولوجيا لخدمة أهدافنا وصياغة مستقبلنا المستقل.

وفى ضوء ذلك، أرى أن أهم ما يمليه علينا الضمير القومى من أولويات فى العام الجديد، فى ضوء استقراء كل ما يجرى حولنا من أحداث عالمية تتصارع فيها الدول فى آسيا وأوربا وأمريكا إلى الدخول فى تكتلات سياسية واقتصادية، هو ضرورة الدخول فوراً فى تكتلات اقتصادية وسياسية سواء كانت عربية - عربية أو عربية - إسلامية، فهذا هو السبيل لمواجهة تكتلات الحاضر وتحديات المستقبل. ولا مجال هنا - إذا ما ارتفع قادتنا وشعوبنا إلى مستوى الوعى بالمسئولية التاريخية الملقاة على عاتق الجميع والى مستوى التحديات التى تلخصها عبارة " نكون أو لا نكون" - إلى النظر إلى حساسيات المصالح الشخصية أو العرقية أو إلى ما يشبه ذلك. وأظن أن الجميع متفقون منذ زمن على أهمية وضرورة هذه التكتلات الاقتصادية والسياسية التى هى السبيل الأمثل نحو الوحدة التى لا تزال أملا يراود العرب والمسلمون. وعلى القادة الخضوع لرغبة وأمال الشعوب، وعلى مخططى السياسات النظر فى كيفية التنفيذ.

إن الدراسات العلمية التى تراكمت طوال السنوات الماضية من كل الجهات فى العالمين العربى والإسلامى أكدت من منطلق

الامكانات الواقعية المتاحة أن قيام مثل هذه التكتلات السياسية – الاقتصادية سيكتب لها النجاح إذا ما صفت النفوس واستيقظت الضمائر وتغلبت المصالح المشتركة على المنافع الأنانية للأفراد أو للدول. وأعتقد أن المناخ الدولى الآن أصبح مهيئاً أكثر من أى وقت مضى لتقبل أى صيغة من صيغ الوحدة العربية أو الإسلامية إذا لمس منا الإصرار عليها. وإذا ما استطعنا تجاوز أى خلافات مفتعلة بيننا، وأى مؤثرات محتملة من أعدائنا الحقيقيين؛ الصهيونية العالمية ودول الغرب المساندة لها.

إن امتلاكنا لإرادتنا لن يكون إلا بالاكتفاء الذاتى من الغذاء، وبامتلاك القوة العسكرية والاقتصادية التى تفرض على الجميع احترام هذه الإرادة. ولن يكون لنا هذا أو تلك الا بالدخول فى هذه التكتلات الاقتصادية – السياسية ، وكلما استطعنا توسيع نطاق هذه التكتلات فيما بيننا كلما كانت مشاركتنا الايجابية فى صياغة وصنع مستقبلنا، وصياغة وصنع مستقبل ما يسمى بالنظام العالمى الجديد بأن يكون لنا دور أساسى فيه وليس دوراً هامشياً.

إن الأمل فى المستقبل كبير، كبير، لكن تحقيق هذا الأمل مشروط بمقدار وعينا وبمقدار فعلنا بموجب هذا الوعى. وإذا كنا فيما سبق قوله قد وعينا آلام العام الماضى ومآسيه وأحزانه، كما أدركنا ايجابياته التى فشلنا فى استثمارها بتقاعسنا عن الفعل والاكتفاء

بالقول والكلام، فهل نطمح إلى أن يكون هذا العام الجديد، هو عام تحقيق الآمال على أرض الواقع، أم سنكرر فى بداية العام القادم ١٩٩٤ نفس الكلام دون أن يتحقق فى الواقع أى فعل؟!.

(١٨)

تأملات عربى فيما بين عامين :
عام مضى وعام أتى..

(٢)

فقر "السياسة"
وصناعة "الفقر"
فى العالم العربى(*)

(*) كتبت فى مطلع يناير عام ١٩٩٤م. وأرسلت إلى نفس الصحيفة التى نشرت سابقتها: ولكنها لم تنشرها. ولا أعرف سبباً محدداً لذلك، وربما يكون السبب هو زيادة جرعة النقد الذاتى والصراحة فى مواجهة سلبيات الإنسان العربى حاكماً ومحكوماً.

تأملات عربى بين عامين
عام مضى وعام أتى..
(٢)
فقر "السياسة"وصناعة "الفقر"
فى العالم العربى

ها نحن نستقبل عاماً جديداً، ويرحل عنا آخر؛ وفى اليوم الذى يفصل بين العامين دائماً تترى الخواطر وتتلاحق الأحداث، أحداث عام مضى وتخيلات بشأن أحداث العام الجديد.

ففى هذا اليوم بالذات يكون حساب النفس عند كل من يعى أنه لابد أن يحاسب نفسه عما يفعل قبل أن يحاسبه الله! إنه اليوم الذى جرت فيه عادة الناس فى الغرب أن يذهبوا للمراقص وأن يرتكبوا كل الموبقات والمفاسد! والغريب أننا فى بلاد العرب والمسلمين نقلدهم دون أن نعى ويعون. إنه يوم تحل فيه ذكرى نبى ورسالة سماوية عظيمة، ولو وعينا ذلك لأدركنا أنه يوم ينبغى أن يقلع الجميع فيه عن المفاسد وارتكاب المعاصى ويتجهون إلى الله ويحاسبوا أنفسهم عما ارتكبوا من آثام فى حق أنفسهم وفى حق غيرهم، إنه يوم يحل كل عام لنحاسب فيه النفس ونردعها لا يوم تقودنا هى فيه إلى ارتكاب المعاصى والمفاسد!

وإذا كان يحق للإنسان الغربى أن يحتفل على طريقته الحمقاء التى لا تليق بذكرى ميلاد نبى ومولد رسالة سماوية المفروض أنه يؤمن بها ويقدس صاحبها؛ لأنه والحق يقال يقضى عامه فى العمل الجاد والانجاز المبدع وتبدو نتائج أعماله واضحة أمامه كل عام؛ فهو الإنسان الذى يتحكم الآن فى العالم، وتتمتع بلاده بأكبر قوة اقتصادية وعسكرية، ويسير العالم فى ركاب ديمقراطيته وشعاراته عن "النظام العالمى الجديد"، الذى يقوده حلفه الوحيد، حلف الأطلنطى الذى لم يكتف بدول أوربا الغربية وحلفائها، فبدأ يبتلع دول أوربا الشرقية وجيرانها!

أقول: أنه إذا كان يحق للإنسان الغربى وهو يحقق كل يوم بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة سيادته المطلقة على العالم أن يحتفل بهذه الانجازات البارعة الرائعة!! فإنه على الإنسان العربى، إذا كان لا يزال يعى ولديه بقية من عزة وحياء أن ينزوى ويغتم ليتأمل بجدية ما يفعله ويحاسب نفسه على ما فعل وعلى ما لم يفعل ، وسيجد حينئذ أن مصيبتنا الكبرى أننا حقاً لا نفعل شيئاً، وإذا كان الآخرون ينبغى أن يحاسبوا أنفسهم على ما يفعلون، فإن علينا أن نحاسب أنفسنا على " عدم الفعل"!!

وأظن أن الكثيرين من قرائى الآن يتساءلون فى غضب: كيف ذلك ونحن كل يوم نذهب لأعمالنا ونقوم بفعل ما يطلب منا؟! كيف

ذلك ونحن كل يوم نقرأ ونكتب؟! كيف ذلك ونحن كل يوم نذهب لجامعاتنا ومدارسنا نتلقى العلم؟! كيف ذلك ونحن كل يوم نجتمع ونحضر المؤتمرات ونصرح بالبيانات فنشجب وندين، أو نوافق ونبارك؟!

والحق أقول لكم أيها الغاضبون الحانقون وأقول لنفسى معكم: إن المهم ليس القيام بالفعل " أو " العمل"، وإنما الأهم هو أن ترى " نتيجة" لهذا الفعل أو العمل!.

ذلك هو المبدأ البراجماتى (النفعى) الذى تسير عليه أمريكا والغرب، وأقاموا على أساسه كل إنجازاتهم فى كافة المجالات، وذلك هو المبدأ الذى نجد صورة أكثر تحضراً ورقياً منه فى إسلامنا الحنيف الذى طالب أتباعه أن يرتبط لديهم " القول " "بالفعل" وأن تتحول النيات الطيبة إلى أفعال سلوكية ذات نتائج علمية تغير واقع المسلم إلى الأفضل، ولنتأملوا معى قوله تعالى "**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**"، وقوله تعالى أيضاً: "**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** " (صدق الله العظيم).

إننا حقاً نذهب كموظفين وعاملين إلى أعمالنا، ونتجه كطلاب وأساتذة إلى مدارسنا وجامعاتنا، ونسود الصفحات كل يوم ككتاب وأدباء وعلماء، ونحضر الاجتماعات والمؤتمرات كساسة وحكام،

لكننا فى كل ذلك نقوم بعملنا كالرحى التى تطحن القمح أو الذرة الذى نعطيها إياه دون أن تضيف شيئاً من عندها، هكذا نحن، نفعل ما يطلب منا، وقد نفعله بأمانة، ولكن لم يسأل أحدنا نفسه: ما نتيجة ما أقوم به من عمل، وماذا تحقق على الأرض - أرض الواقع من خلال هذا العمل؟!

وأجدنى مدفوعاً هنا إلى القول : إنه إذا استثنينا " العمال" الذين يديرون الآلات فى المصانع ويعملون بالحقول والمزارع ووسائل الانتاج المختلفة، واستثنينا من يوجهونهم فى هذه الأعمال، لوجدنا الجميع بعد ذلك يمارسون الفعل الذى يتساوى مع عدم الفعل، أى يمارسون اللافعل"؛ فأفعالهم إن وجدت ظاهرية مظهرية لا ينتج عنها شيئاً محدداً فى الواقع، ولا أدرى لذلك سبباً واضحاً؟!.

وليسأل حكامنا وساستنا أنفسهم بصراحة: ماذا فعلوا بكل مؤتمراتهم وتصريحاتهم واجتماعاتهم! هل تمخض عن كل ذلك ما غير واقع شعوبهم إلى الأفضل؟! بمعنى: هل توحدت كلمتهم واتجه فعلهم - كما فعل قادة دول الخليج مثلاً - إلى توحيد البلاد ورفع الحواجز المصطنعة بينها؟! وهل دخلوا فى تكتل اقتصادى ازداد فى إطاره الإنتاج الزراعى والصناعى لبلادهم وكفى حاجة شعوبهم؟! وهل فعلوا شيئاً لانقاذ أهليهم فى الصومال وغيرها من المجاعة

والتشتت والاقتتال؟! وهل فعلوا شيئاً حقيقياً لانقاذ بلادهم من ذل الحاجة والتبعية والاعتماد على الغير فى كل شىء من الحماية والدفاع وتوفير الغذاء وحتى توفير وسائل الراحة والرفاهية؟! وهل..؟؟ وهل..؟؟ . الخ.

إن ما نفعله دائماً هو إصدار البيانات، وإن صدرت البيانات حاملة بعض ما يحقق الطموحات، لم تتحول إلى نتائج ملموسة يراها الناس!

ولأضرب لكم مثالاً واحداً على "فقر" سياستنا العربية فى هذا الصدد؛ إنه فى الوقت الذى يتجه فيه كل دول العالم شرقه وغربه إلى الدخول فى تكتلات اقتصادية وتجارية ضخمة تتواجه أو تتفق حفاظاً على حياة ورفاهية شعوبها وحماية إنتاجها، نجد أن "التبادل التجارى بين الدول العربية لا تتعدى نسبته ٣% بالقياس إلى نسبة تجارة كل منها مع العالم الخارجى"!! فهل يعقل هذا الأمر بين أناس يدعون كل يوم فى مؤتمراتهم وبياناتهم أنهم أبناء أمة واحدة!! إن السياسات التى لا تزال متبعة فى بلادنا العربية سياسات تابعة فقيرة، لم تصل قط إلى تحقيق الحد الأدنى لأمال الشعوب التى لاتزال تشتاق إلى يوم يتغيرفيه الواقع العربى الممزق المؤلم، إلى "وحدة اقتصادية" تدعم سياسة خارجية مستقلة، وسياسة دفاعية قادرة على حماية أمن ومصالح المواطن العربى!

يقولون باستمرار: إن ثمة عقبات تحول دون تحقيق ذلك؛ وهذه العقبات دائماً وعلى مدار العقود الخمس الماضية تتجدد حسب الحال، وحالنا اليوم يقول إن العقبة هى العدوان العراقى على الكويت، والحقيقة هى أن العدوان قد انتهى منذ سنوات، ولم يعد باقياً إلا نظام حكم مستبد يمكن تجاوزه كلية؛ فلتجمع إرادة الحكام العرب حسب إرادة شعوبهم، وإذا كانت العقبة التى تحول دون ذلك هى " طاغية بغداد" فليكن هناك من يمثل الشعب العراقى ويعبر عن طموحاته فى التئام الشمل العربى.

وعلى مخططى السياسات توفير وسائل ذلك، وهم لن تعجزهم الوسائل إذا صدقت النوايا وأخلصت النفوس وتوحدت الأهداف وأردنا حقاً أن نخرج من دائرة " الأقوال" والبيانات" إلى دائرة " الأفعال" ذات النتائج الملموسة !!، وإلا فليخبرنى أحد المتخصصين أثابه الله: مادور تلك المؤسسات العربية التى ينفق عليها من المال العربى الملايين، مثل مؤسسات الجامعة العربية وما جدواها اذا لم تنجح فى ذلك؟!!

إن فقر السياسة العربية وعدم بلورتها لاستراتيجية موحدة تستند على تحقيق الحد الأدنى من مطالب الإنسان العربى وتحقيق أماله فى ظهور تكتل اقتصادى عربى موحد، ورؤية سياسية تتفق حول الحد الأدنى من المصالح العربية المشتركة، إن هذا قد أدى إلى

الآن، وسيؤدى فى المستقبل القريب إلى ما يمكن أن نسميه " صناعة الفقر" العربى إن عاجلاً أو آجلاً!!

إن فقر السياسة العربية وما يؤدى إليه من صناعة الفقر وتكريسه فى العالم العربى، أمر لا يقتصر تحمل مسئوليته على الحكام وواضعى السياسات وحدهم، بل أمر ينبغى أن يقع العبء الأكبر فيه على المثقف العربى الذى كان ولايزال يجب عليه أن يتحمل مسئولية شريفة رائدة فى إلهاب الوعى العربى، والتفاعل مع مطالب الإنسان العربى العادى والتعبير عنها وبلورتها والإلحاح فى توصيلها إلى واضعى السياسات لتكون بمثابة الضوء الهادى لهم حينما يضعون تلك السياسات العربية فى كافة البلدان والمجالات!

لكن ماذا يفعل المثقفون العرب الآن : إنهم يمارسون " اللافعل "ويستمتعون بذلك؛ فهم قد اكتفوا فى معظم الأحيان " بالرغى والثرثرة" فى كافة الميادين دون هدف قومى واضح يستهدفونه ويلحون فى طلبه وتحقيقه!؛ فهم إما من كاتبى الأشعار والروايات، وهؤلاء – باستثناءات جدُ قليلة – يكتبون ما يستغلق على الافهام، ويعيشون بين الكلمات المستغلقة التى يكتبونها، ولم يعد التفاعل مع غيرهم يعنيهم فى شىء، فقد اكتفوا بحضور ندوات بعضهم البعض، والكتابة للصحف والمجلات التى تدفع أكثر للحصول على المال "

الوفير" وتحقيق رغد العيش! وإما أنهم من كتاب المقالات والابحاث، وهـؤلاء إن كـانوا من المتخصصين فى السياسة اكتفوا فى الغالب بكـتابة مقالات لا تخرج عن كونها " ثرثرة سياسية" كثرثرة الرجل العـادى دون تعمق أو دراية، أو هى تحليلات ناقدة يكتبونها دون أن يرسـموا أمامـنا طـريق الخـروج مـن الازمـات السياسية التى يحلـلونهاودون أن يبصروننا بالطريق الذى ينبغى أن نسلكه للإفلات من السياسات والمخططات العالمية التى تحاك لنقع فى حبائلها!

أما إن كانوا من المتخصصين فى الشئون الثقافية العامة فهم باستثناءات جدُ قليلة أيضاً - يكتبون كلاما لمجرد الكتابة وحب الظهور، أو يكتبون لمدح صديق أو نقد آخر، أو يكتبون كلاماً غير مفهوم ملىء بالمصطلحات المستغلقة والرطانة اللفظية التى لا يفهمها الناس! أو يكتبون كلاماً سطحياً لا يقدم ولا يؤخر، أى يكتبون فى لا موضوع وبلا أى رؤية محددة! وفى كل تلك الأحوال وللأسف الشديد لا يستفيد القارئ الواعى شيئاً مما يكتبون لانعدام الإخلاص وفقدان الوعى وغياب الالتزام وضياع الهدف من الكتابة عند هؤلاء وأولئك!!

إن حالنا نحن العرب - بكل موضوعية ومع شديد الأسف - يرثى له على كافة المستويات وفى جميع الاتجاهات! فكل أحوالنا تسير فى اتجاه واحد ثابت؛ هو اتجاه محو الهوية وضياع معالم

الشخصية العربية بكل ما كان فيها من استقلالية وكرامة وعزة وإباء، تسير فى اتجاه التقليد والتبعية المطلقة لكل ما يأتينا من الغرب، تسير فى اتجاه التشتت والتشرذم والانغلاق على أنفسنا فى دويلات صغيرة مقطوعة الصلة ببعضها. لا تستطيع كل منها بمفردها أن تعيش إلا مرتبطة بالشبكة الغربية الرهيبة التى اقتربت من ابتلاع الجميع تحت مظلة ما يسمى الآن بالسوق " الشرق أوسطية". التى تتزعمها اسرائيل والمزمع تمريرها أثناء المفاوضات المتعددة الأطراف، عبر المفاوضات الجارية الآن لحل أزمة الشرق الأوسط.

ومع كل هذه القناعة التى تبدو عليها صورتنا الآن، فإنه إذا كان لدينا الشجاعة الكافية فى مواجهتها كما هى وبلا رتوش، وامتلكنا إرادة التغلب عليها، فإن الأمر لا يزال بأيدينا وبأيدى ساستنا وحكامنا !

إن عاما جديداً يعنى أملاً جديداً فى مستقبل أفضل، ذلك الأمل الذى لا يتحقق إلا عبر تصميم أكيد على "الفعل" المؤدى إلى نتائج إيجابية. وهذا " الفعل " يتطلب إصرار كل المثقفين العرب، وكل مخططى السياسة العرب، وكل مجالس الشعب والشورى العربية، ومع أولئك وأمامهم كل القادة العرب، يتطلب إصرارهم – كل حسب

منصبه وقدراته ومواهبه – على رسم صورة واقعية جديدة للعمل العربى المشترك تكون معالمها الرئيسية من البساطة بحيث لا تدخلنا فى دوامة الإلغاز وحديث " العقبات " و" الأزمات " الخ.

وأكاد أرى ملامح هذه الصورة البسيطة تتلخص فى أمرين اثنين يبدأ بهما العمل :

(١) الاتفاق على استراتيجية القبول بالحد الأدنى للعمل العربى المشترك فى كل المجالات بما يحقق المصالح العليا للعرب جميعاً.

(٢) وعلى هذا الأساس يمكن إعادة جمع الشمل العربى والبدء فوراً فى مفاوضات إنشاء "التكتل الاقتصادى العربى " وإنشاء آلية جديدة لنظام دفاعى عربى مشترك، وذلك حسب ما تمليه مصالح الجميع، والاستفادة فى ذلك بكل الموارد العربية المتاحة فى هذا السبيل حسب إمكانيات كل دولة ودورها الذى تحدده طبيعتها ومواطن قوتها.

إن الأيام القادمة والسنين الباقية من هذا القرن ستكون بالنسبة لنا هى الحد الفاصل بين بقائنا كأمة عربية على قيد الحياة، وبين " خروج العرب من التاريخ" على حد تعبير الدكتور فوزى منصور أحد الباحثين العرب الجادين! وفى ضوء تمسكى الشديد بالأمل

والتفاؤل – رغم قتامة الحاضر – أدعو الله أن يكون عام ١٩٩٤م هو عام " الفعل و " العمل" العربى المشترك، هو العام الذى نتخلص فيه من السياسات السلبية الحالية التى أدت وستؤدى الى تكريس وصناعة الفقر للإنسان العربى المكافح الصابر الذى آن الآوان ليعبر حكامه عن آماله وطموحاته ويصنعون به وله المستقبل الأفضل.

(١٩)

سيل المذكرات السياسية وغياب الوعى التاريخى (*)

(*) نشرت بصحيفة " الخليج" اليومية التى تصدر بدولة الإمارات العربية المتحدة ــ الشارقة فى ١٩٩٢/٩/١٥

سيل المذكرات السياسية
وغياب الوعى التاريخى

انتشرت فى الفترة الأخيرة من تاريخنا المعاصر موضة كتابة المذكـرات السياسـية سواء من كبار الساسة والعسكريين باعتبارهم صـناع القرار السياسى والحربى، أو من شهود العيان لتلك الأحداث السياسـية والحـربية سـواء مـن المقربين لصانعى القرار أو من الصـحفيين والكتاب. وواكبت أجهزة الإعلام هذه الموضة فعرضت الصـحف القوميـة والحزبية وكذلك البرامج الإذاعية لتلك المذكرات وأخذت على عاتقها استخراج النتائج التاريخية المترتبة على مذكرات س أو ص مـن هـؤلاء الكـتاب (كـتاب المذكرات) الذين لاتخرج مذكـراتهم عن كونها مجرد ذكريات شخصية حول أحداث عاشوها أو شـاهدوا صنعها. وكانت تلك الذكريات فى معظم الأحيان موجهة للدفاع عن أصحابها وأدوارهم التى كانت - كما يصورونها - دائماً صـلبة وعظيمـة.!! أو مواقـف للتقـليل من شأن مواقف الآخرين والتهوين من أهمية دورهم فى تلك الأحداث ..!!

ولا شك أنه فى هذا الإطار تضيع الحقيقة التاريخية ولا يصبح لها وجود، ومن ثم فإن الاستناد على تلك المذكرات فى التأريخ عموماً أو فى الحكم على الأحداث التاريخية هو استناد فى غير

موضعه سواء من جانب المثقف العادى الذى يهتم كثيراً بمعرفة ما حدث فى الحقبة القريبة التى عاشها ولم يعرف عنها الكثير، أو بالأحرى من جانب المؤرخ الذى لا يجب أن يمسك بقلمه ليؤرخ إلا إذا كان أمامه الوثائق الدامغة حتى يضمن لتأريخه القدر المطلوب من الموضوعية العلمية وهى أهم صفة ينبغى أن تتوفر فى المؤرخ . وفى اعتقادى أن تلك المذكرات لا يمكن اعتبارها – وهى بهذه الصورة – من الوثائق التى يعتد بها حين التأريخ؛ فهى كما ذكرنا مجرد خواطر كتبت لأغراض شخصية وتجارية وليس لأغراض تاريخية.

وهنا يكون السؤال: لماذا إذن كل هذا السيل من الدعاية لهذه المذكرات، ولماذا تتهافت عليها دور النشر حتى أصبح كل من دخل الوزارة شهرا يفكر فى كتابة مذكراته، وكل من خاض معركة ولو فاشلة يريد كتابة مذكراته، وكل كاتب يريد أن ينفث شموما وأحقاداً يكتب مذكراته ليؤكد لنفسه أنه كان صاحب دور فى الأحداث؟!!

إن الإجابة الوحيدة التى أجدها لهذا السؤال هى، غياب الوعى التاريخى لدينا سواء لدى من يكتبون تلك المذكرات متصورين بذلك أنهم يقومون بعمل تأريخى جليل وهم فى واقع الأمر لا يقدمون إلا هموماً شخصية، أو لدى دور النشر التى تنسى – فى هذه الأحيان – أن رسالتها الأولى هى نشر الحقيقة وخدمة المجتمع ثقافياً

وحضارياً وليس فقط خدمة أصحابها وتضخيم ثرواتهم أو لدى المؤرخين الذين يستندون فى كتاباتهم التاريخية على تلك المذكرات وما تكشفه من صراعات وأسرار خفية ناسين أن التاريخ الحقيقى للأمم والشعوب لا يتوقف كثيراً أمام تلك السخافات، أو لدى القارئ العادى شديد اللهفة لمعرفة أى شىء عن فترات طمست فيها الحقائق ولكنه كلما قرأ المزيد من هذه المذكرات التى نزلت عليه كسيل لا ينقطع يكتشف أن الحقيقة قد طمست أكثر، بل قد غابت تماماً، لأن الحقيقة – فى واقع الأمر – واحدة مهما تعددت جوانب الكشف عنها. وأصحاب هذه المذكرات قد غرقوا فى سرد تفاصيل حياتهم وحياة غيرهم من أشخاص ماتوا – فى معظم الأحوال – فأرادوا أن يهيلوا عليهم التراب، فإن كانوا من الاشتراكيين كان النفاق والوصولية والمحسوبية مقصورة على أهل اليمين، وإن كانوا من أهل اليمين كانت كل الرزايا من نصيب الاشتراكيين والشيوعيين .. إلخ وهكذا يغرق القارئ بين معارك لا شأن له بها، وفى دوامة من تصفية حسابات ليس فيها من الحقيقة شىء، فكأنه يلهث وراء معرفة حقيقة من طريق لا يوصل إلا إلى سراب.

إن غياب الوعى التاريخى يعنى فى اعتقادى غياب العقل لدى من يتعرض للتاريخ سواء كان كاتبه أو متلقيه أو حتى لدى صانع أحداثه؛ فكلمة الوعى تعنى ببساطة المعرفة العقلية الشاملة بكافة

العناصر والاحساس العميق بأهمية كل عنصر من عناصرِ التاريخ، تعنى الإلمام بالخيط الأساسى الذى يربط أحداث التاريخ ماضيه وحاضره ثم شد الخيط لاستشراف أحداث المستقبل والتنبؤ بها وتقييم دورنا الماضى والحاضر وهل يمكن أن يكون لنا دوراً فى المستقبل؟ وليس المقصود هنا النظر فيما مر أو يمر بنا من أحداث بوصفنا وحدة جغرافية منعزلة مستقلة، بل المقصود هو النظرة الشاملة التى تربط بيننا وبين كافة الأمم والشعوب وما مر وما يمر بها من أحداث، فتقييم دور أى أمة – كما نبهنا إلى ذلك فلاسفة التاريخ ــ ليس بالقياس إلى ما تقدمه إلى نفسها أو إلى المنطقة التى تقع فيها بل بالقياس إلى ما أتته وتؤديه من إسهام مؤثر فى تقدم ورقى البشرية ككل. ففى هذا الإطار فقط تتكشف حقيقة أدوار الشعوب والأمم فى التاريخ العالمى، وفى هذا الإطار أيضاً يتضح عظمة أو تفاهة دور زعماء وأبطال التاريخ.

من هنا نكتشف ضآلة وضحالة ما يكتبه هؤلاء عن أنفسهم وعن غيرهم. إن التعرض للتاريخ أيها السادة له أصوله وقواعده، فضلاً عن أن منطق التاريخ لا يكشف عن نفسه لأناس لا يرون فيه إلا أنفسهم، فمنطق التاريخ وكشف كوامنه واستشراف آفاق المستقبل منه يحتاج الى جهد وعبقرية ابن خلدون، إلى عقلانية هيجل. إلى صبر شبنجلر، وتحدى توينبى. إن التاريخ ليس ساحة فضاء يلعب فيها اللاعبون بلا قوانين أو ضوابط بل هو علم له قواعده ومناهجه.

وأعرف من يعرف قيمته ويستطيع الكشف عن منفعته فى تقدم الأمم ورقى الشعوب من خلال الكشف عن القوانين العامة المسيرة للتاريخ الإنسانى ككل هم فلاسفة التاريخ. فهل قرأ هؤلاء شيئاً عما يسمى بفلسفة التاريخ فضلاً عن علم التاريخ؟! أكاد أجزم بأن ذلك لم يحدث وإلا لكان معظمهم قد توقفوا عن الخوض فى غمار التاريخ وتركوا الأمر للمختصين المتخصصين فيه.

إن الحس التاريخى لدينا كما أراه الآن قد توقف عند النظر فى الماضى دون الحاضر، ناهيك عن المستقبل الذى لا يفكر فيه أحد، وكأن التاريخ يعنى فقط نبش أحداث الماضى دون الاستفادة منه فى فهم الحاضر وإعطائه دفعة التقدم المطلوبة ودون استشراف أحداث المستقبل ولفت الأنظار إلى ما ينبغى عمله لكى يكون لنا ريادة ودوراً فيما سيجرى من أحداث عالمية.

ويتملك المرء الدهشة حينما يقارن بين المصرى المعاصر والمصرى القديم، فقد كان لدى أجدادنا القدامى حساً تاريخياً عظيماً يعرف قيمة النظر فى الماضى ليستفيد منه فى أن يعيش حاضراً زاهياً ويستشرف أفاق المستقبل المشرق. لقد كان مركب الروح المصرية القديمة يمتلك هذا الحس التاريخى واضح المعالم؛ فقد وعت الروح المصرية – على حد تعبير الفيلسوف الألمانى شبنجلر –

الماضى والمستقبل على أنهما كامل عالمهما، أما الحاضر المطابق للوعى اليقظ فبدا لها حداً بسيطاً ضيقاً ومشتركاً بين امتدادين غير قابلين للقياس. لقد استدل شبنجلر على هذا الحس التاريخى الواعى لدى المصرى القديم من النظر فى الحضارة المصرية القديمة التى كانت تجسيداً للاهتمام بالمستقبل الذى تبدى فى كل مظاهر الحضارة المصرية، وإذا أردت الدليل على ذلك فانظر فى مادة تماثيلهم التى اختاروها من الصخر والجرانيت الصوان التى تتحدى تأثير الزمن، وفى أنظمتهم الإدارية العظيمة التى خططت للمستقبل بانشاء شبكات الرى الواسعة. لقد كان اهتمام المصرى القديم بالتاريخ اهتماماً عظيماً نراه واضحاً جلياً فيما خلفه من نقوش تحتوى على تسجيل لأهم الأحداث التاريخية التى مرت بهم، إنهم حنطوا تاريخهم وحفظوه كما حفظوا جثث رموز هذا التاريخ وصناعه من الملوك وكبار القادة.

تم كل ذلك فى الوقت الذى عاصرتهم فيه حضارات لم تعرف من هذا الحس التاريخى شيئاً، وأتت بعدهم الأمة اليونانية ولم تعرف من أمر التاريخ شيئاً اللهم إلا فى عصرها المتأخر.

أين نحن من هؤلاء الأجداد، وأين صناع هذا الوعى التاريخى الحاد والذى كان أهم عناصره لدى أجدادنا النظر فى الماضى

لاستشراف آفاق المستقبل. إننا قد أفتقدنا هذا الحس التاريخى وأصبحنا بتضافر عوامل وضغوط نفسية وسياسية واقتصادية عديدة، لانرى إلا ما تحت أقدامنا، أصبحنا كنارسيوس ذلك الفتى الأسطورى الذى أحب صورته لدرجة أنه من فرط حبه لها أخذ يتأملها على صفحة النهر حتى غرق فيه!. هكذا نحن نضخم فى دورنا كأفراد وكأمة حينما نتحدث عن أنفسنا فنتصور خطأ أننا صانعو التاريخ وحدنا، ونضخم فى إنجازات زعمائنا حتى نتصور أنه لا أخطاء لهم إن أحببناهم، أو أن كل قراراتهم وما قاموا به كان خطأ إن كرهناهم، وحينما يعود إلينا الوعى يكون وعياً زائفاً لأنه يفتقر فى معظم الأحيان إلى الموضوعية، وإلى الوعى بلحظات التاريخ الثلاث، وإلى الضمير الوطنى اليقظ الذى يغلب مصلحة الأمة على مصلحة الفرد.

فهل نأمل فى جيل جديد من المؤرخين يحترم تاريخه، ويقيمه بموضوعية ونزاهة من خلال منهج علمى صارم ونظرة فلسفية شاملة؟!